ليلى الأخيلية

هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال وسميت الرحالة. آخر أجدادها كان يعرف بالأخيل وهم ينتسبون إلى قبيلة بني عامر.توفيت سنة 85 للهجرة

ليلى الأخـيلية
تو. 85 هـ

ليلى الأخيلية من أهم شاعرات العرب المتقدمات في الإسلام ولا يتقدمها أحد من النساء سوى الخنساء. هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال وسميت الرحالة. آخر أجدادها كان يعرف بالأخيل وهم ينتسبون إلى قبيلة بني عامر.

عاصرت ليلى الأخيلية أهم أحداث عصرها السياسية، ولكن شعرها خلا من تلك الأحداث باستثناء رثائها لعثمان الذي استشهد سنة 35هـ. وبرزت ليلى بجمالها وشجاعتها التي مكنتها من التصدي لأكبر الشخصيات، ومقدرتها على إسكات فحول الشعراء بشاعريتها الواضحة في شعرها وعفتها.

نشأت ليلى منذ صغرها مع ابن عمها توبة بن الحمير. والمشهور عنها أنها عشقت توبة وعشقها. وكان يوصف بالشجاعة ومكارم الأخلاق والفصاحة. وكان اللقاء عند الكبر عندما كانت ليلى من النساء اللواتي ينتظرن الغزاة، وكان توبة مع الغزاة فرأى ليلى وافتتن بها. وهكذا توطدت علاقة حب عذري. ولكن رفض والد ليلى كان عائقاً في زواجهما.

زوّجها أبوها من أبي الأذلع. ولكن زواج ليلى لم يمنع توبة من زيارتها وكثرت زياراته لها. فتظلم بنو الأذلع إلى السلطان الذي أهدر دم توبة، إذا عاود زيارة ليلى، فأخذوا يترصدون له في المكان المعتاد. وذات يوم علمت ليلى بمجيء توبة وخرجت للقائه سافرة وجلست في طريقه فاستغرب خروجها سافرة. ولكنه فطن أنها أرادت أن تعلمه عن كمين نصب له فأخذ فرسه وركض، وكانت ليلى هي السبب في نجاته. وفي هذا الحدث يقول توبة:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

تزوجت ليلى مرتين، وكان زواجها الأول من الأذلعي. ومن أهم صفات زوجها الأول أنه كان غيوراً جداً. وبعض القصص تقول إنه طلقها لغيرته الشديدة من توبة، وقصص أخرى أنه مات عنها. أما زوجها الثاني فهو سوار بن أوفي القشيري والملقب بابن الحيا. وكان سوار شاعراً مخضرماً من الصحابة. ويقال إن ليلى أنجبت منه العديد من الأولاد.

كانت ليلى في ذلك الزمان مشهورة بين الأمراء والخلفاء. فحظيت بمكانة لائقة واحترام كبير. فأسمعت الخلفاء شعرها سواء كان من الرثاء أو المديح ونالت منهم الأعطيات والرغبات. وكذلك كان الشعراء يحتكمون إليها وكانت تفاضل بينهم.

ذات يوم وفدت ليلى على معاوية بن أبي سفيان ولديها عدة قصائد مدحته فيها، وقصيدة لها وصفت فيها ناقتها التي كانت تجوب الأرض لتصل إلى معاوية فيجود عليها من كرمه. وسأل معاوية ذات يوم ليلى عن توبة العشيق إذ كان يصفه الناس بالجمال والشجاعة والكرم . فقالت "يا أمير المؤمنين سبط البنان، حديد اللسان، شجى للأقران، كريم المختبر، عفيف المئزر، جميل المنظر". ثم قال معاوية وما قلت له ؟ قالت : "قلت ولم أتعد الحق وعلمي فنه". فأعجب من وصفها وأمر لها بجائزة عظيمة واستنشدها المزيد.

كانت ليلى على علاقة وثيقة بالحجاج بن يوسف وبالأمويين عامة . ويذكر ذات يوم أنها دخلت على الحجاج، فاستؤذن لليلى فقال الحجاج من ليلى ؟ قيل الأخيلية صاحبة توبة . فقال: ادخلوها. فدخلت امرأة طويلة دعجاء العينين، حسنة المشية، حسنة الثغر. وعند دخولها سلمت فرد عليها الحجاج ورحب بها. وبعد جلوسها سألها عن سبب مجيئها فقالت للسلام على الأمير والقضاء لحقه والتعرض لمعروفه. ثم قال لها وكيف خلفت قومك؟ قالت تركتهم في حال خصب وأمن ودعة. أما الخصب ففي الأموال والكلأ، وأما الأمن فقد أمنه الله عز وجل، وأما الدعة فقد خامرهم من خوفك ما أصلح بينهم. ثم قالت: ألا أنشدك؟ فقال: إذا شئت، فقالت:

أحــجاج لا يفلل سلاحك إنما المنـايا بكـف الله حيث تراها

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القنا سقاها
سقاها دماء المارقين وعلها إذا جمحت يوماً وخفيف أذاها
إذا سمع الحجاج صوت كتيبة أعد لها قبل النزول قراها

بعد انتهائها قال الحجاج: لله ما أشعرها. وأمر لها بخمسمائة درهم، وخمسة أثواب وخمسة جِمال. وبعد مسيرها أقبل الحجاج على مجلسه وقال: أتدرون من هذه؟ قالوا:لا والله ما رأينا امرأة أفصح وأبلغ ولا أحسن إنشاداً . قال: هذه ليلى صاحبة توبة. ولم يكن الحجاج يظهر بشاشته ولا سماحته في الخلق إلا في اليوم الذي دخلت عليه ليلى الأخيلية.

إن أغلب القدماء أشادوا بأن ليلى الأخيلية شاعرة فاقت أكثر الفحول من الشعراء، وشهدوا لها بالفصاحة والإبداع. ومن الذين أعجبوا بشعرها الفرزدق حتى أنه فضل ليلى على نفسه، وأبو نواس الذي حفظ العديد من قصائدها، وأبو تمام الذي ضرب بشعرها المثل، وأبو العلاء المعري الذي وصف شعرها بأنه حسن ظاهره.

تتسم العطفة في شعرها بالهدوء والاستسلام للقدر على شيء من التفلسف والتأمل في الوجود. ويتبين من شعرها تأثير البيئة الأموية التي عادت فيها العصبيات القبلية إلى الظهور، وتفاخر الشعراء بقبائلهم كقول الأخيلية:

نحن الأخايل لا يزال غلامنا حتى يدب على العصا، مشهوراً
تبكي الرماح إذا فقدن أكفنا جزعاً، وتعرفنا الرفاق بحوراً

ويلاحظ التأنق اللفظي في شعر الأخيلية. وهذا التأنق يأتي بعيداً عن التكلف والتعقيد. ومن أساليب التأنق اللفظي يلاحظ في شعرها الطباق، وهناك غموض خفيف وبساطة قريبة من عالم الشعر والخيال. ومن سمات شعر الأخيلية التكرار اللفظي. وهذا التكرار مستحسن لدى الأخيلية وغايته تأكيد المعنى والإكثار من الألفاظ المتشابهة.

أقبلت ليلى من سفر وأرادت أن تزور قبر توبة ذات يوم ومعها زوجها الذي كان يمنعها، ولكنها قالت: "والله لا أبرح حتى أسلم على توبة". فلما رأى زوجها إصرارها تركها تفعل ما تشاء. فوقفت أمام القبر وقالت: "السلام عليك يا توبة". ثم قالت لقومها ما عرفت له كذبة. فلما سألوها عن ذلك قالت أليس هو القائل:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علي، ودوني تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوصاح إليها صدى من جانب القبر صائح

فما باله لم يسلم علي كما قال؟! وكانت بجانب القبر بومة فلما رأت الهودج فزعت وطارت في وجه الجمل، الذي أدى إلى اضطرابه ورمى ليلى على رأسها وماتت في نفس الوقت ودفنت بجانب قبر توبة. وكانت المنطقة تعرف بالري.

وورد في كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني: هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال وقيل ابن الرحالة بن شداد بن كعب بن معاوية، وهو الأخيل وهو فارسها الهرار ، ابن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. وهي من النساء المتقدمات في الشعر من شعراء الإسلام .

وكان توبة بن الحمير يهواها. وهو توبة بن الحمير بن حزم بن كعب بن خفاجة بن عمرو ابن عقيل .

جاءها توبة يوماً فسفرت له لتحذره: أخبرني ببعض أخبارهما أحمد بن عبد العزيز الجوهري ومحمد بن حبيب بن نصر المهلبي قالا حدثنا عبد الله بن أبي سعد الوراق قال حدثنا محمد بن علي أبو المغيرة قال حدثنا أبي عن أبي عبيدة قال حدثني أنيس بن عمرو العامري قال: كان توبة بن الحمير أحد بني الأسدية، وهي عامرة بنت والبة بن الحارث، وكان يتعشق ليلى بنت عبد الله بن الرحالة ويقول فيها الشعر، فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها وزوجها في بني الأدلع. فجاء يوماً كما كان يجيء لزيارتها، فإذا هي سافرة ولم ير منها إليه إلا بشاشةً، فعلم أن ذلك لأمرٍ ما كان، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى، وبلغ بني الأدلع أنه أتاها فتبعوه ففاتهم. فقال توبة في ذلك:

نأتك بليلى دارها ولا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها

وهي طويلة، يقول فيها:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبة قال: كان توبة بن الحمير إذا أتى ليلى الأخيلية خرجت إليه في برقع. فلما شهر أمره شكوه إلى السلطان، فأباحهم دمه إن أتاهم. فمكثوا له في الموضع الذي كان يلقاها فيه. فلما علمت به خرجت سافرةً حتى جلست في طريقه فلما رآها سافرةً فطن لما أرادت وعلم أنه قد رصد، وأنها أسفرت لذلك تحذره، فركض فرسه فنجا. وذلك قوله:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

قال أبو عبيدة وحدثني غير أنيس أنه كان يكثر زيارتها، فعاتبه أخوها وقومها فلم يعتب ، وشكوه إلى قومه فلم يقلع، فتظلموا منه إلى السلطان فأهدر دمه إلى أن أتاهم. وعلمت ليلى بذلك، وجاءها زوجها وكان غيوراً فحلف لئن لم تعلمه بمجيئه ليقتلنها، ولئن أنذرته بذلك ليقتلنها. قالت ليلى: وكنت أعرف الوجه الذي يجيئني منه، فرصدوه بموضعٍ ورصدته بآخر، فلما أقبل لم أقدر على كلامه لليمين، فسفرت وألقيت البرقع عن رأسي. فلما رأى ذلك أنكره فركب راحلته ومضى ففاتهم .

عرفها رجل من بني كلاب وخبره معها ومع زوجها: أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثني أحمد بن معاوية بن بكر قال حدثني أبو زيادٍ الكلابي قال: خرج رجل من بني كلابٍ ثم من بني الصحمة يبتغي إبلاً له حتى أوحش وأرمل ، ثم أمسى بأرض فنظر إلى بيت بوادٍ، فأقبل حيث ينزل الضيف، فأبصر امرأة وصبياناً يدورون بالخباء فلم يكلمه أحد. فلما كان بعد هدأةٍ من الليل سمع جرجرة إبلٍ رائحةٍ، وسمع فيها صوت رجلٍ حتى جاء بها فأناخها على البيت، ثم تقدم فسمع الرجل يناجي المرأة ويقول: ما هذا السواد حذاءك؟ قالت: راكب أناخ بنا حين غابت الشمس ولم أكلمه. فقال لها: كذبت، ما هو إلا بعض خلانك، ونهض فضربها وهي تناشده، قال الرجل: فسمعته يقول: والله لا أترك ضربك حتى ياتي ضيفك هذا فيغيثك. فلما عيل صبرها قالت: يا صاحب البعير يا رجل! وأخذ الصحمي هرواته ثم أقبل يحضر حتى أتاها وهو يضربها، فضربه ثلاث ضربات أو أربعاً، ثم أدركته المرأة فقالت: يا عبد الله، ما لك ولنا! نح عنا نفسك، فانصرف فجلس على راحلته وأدلج ليلته كلها وقد ظن أنه قتل الرجل وهو لا يدري من الحي بعد ، حتى أصبح في أخبيةٍ من الناس، ورأى غنماً فيها أمة مولدة، فسألها عن أشياء حتى بلغ به الذكر ، فقال: أخبريني عن أناس وجدتهم بشعب كذا . فضحكت وقالت: إنك لتسألني عن شيء وأنت به عالم. فقال: وما ذاك لله بلادك؟ فوالله ما أنا به عالم. قالت: ذاك خباء ليلى الأخيلية، وهي أحسن الناس وجهاً، وزوجها رجل غيور فهو يعزب بها عن الناس فلا يحل بها معهم، والله ما يقربها أحد ولا يضيفها، فكيف نزلت أنت بها؟ قال: إنما مررت فنظرت إلى الخباء ولم أقربه، وكتمها الأمر. وتحدث الناس عن رجل نزل بها فضربها زوجها فضربه الرجل ولم يدر من هو. فلما أخبر باسم المرأة وأقر على نفسه تغنى بشعر دل فيه على نفسه وقال:

ألا يا ليل أخت بني عـقـيلٍ أنا الصحمي إن لم تعرفيني
دعتني دعوة فحجزت عنهـا بصكاتٍ رفعت بها يميـنـي
فإن تك غيرة أبرئك منـهـا وإن تك قد جننت فذا جنوني

سألها الحجاج هل كان بينها وبين توبة ريبة وجوابها له: أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا رشد بن خنتم الهلالي قال حدثني أيوب بن عمرو عن رجل يقال له ورقاء قال: سمعت الحجاج يقول لليلى الأخيلية: إن شبابك قد ذهب، واضمحل أمرك وأمر توبة؛ فأقسم عليك إلا صدقتني، هل كانت بينكما ريبة قط أو خاطبك في ذلك قط؟ فقالت: لا والله أيها الأمير إلا أنه قال لي ليلةً وقد خلونا كلمةً ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر، فقلت له:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تبح بها فليس إليها ما حييت سبـيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى فارغ وحلـيل

فلا والله ما سمعت منه ريبةً بعدها حتى فرق بيننا الموت. قال لها الحجاج: فما كان منه بعد ذلك؟ قالت: وجه صاحباً له إلى حاضرنا فقال: إذا أتيت الحاضر من بني عبادة بن عقيل فاعل شرفاً ثم اهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلةً من الدهر لا يسري إلي خيالها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى فقلت له:

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه عزيز علينا حاجة لا ينالها

مقتل توبة وسببه وكيف كان: أخبرني بالسبب في مقتل توبة محمد بن الحسن بن دريد إجازةً عن أبي حاتم السجستاني عن أبي عبيدة، والحسن بن علي الخفاف قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثنا محمد بن علي ابن المغيرة عن أبيه عن أبي عبيدة، وأخبرني علي بن سليمان الأخفش قال أخبرنا أبو سعيد السكري عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي، ورواية أبي عبيدة أتم واللفظ له. قال أبو عبيدة: كان الذي هاج مقتل توبة بن الحمير بن حزم بن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة أنه كان بينه وبين بني عامر بن عوف بن عقيلٍ لحاء ، ثم إن توبة شهد بني خفاجة وبني عوفٍ وهم يختصمون عند همام بن مطرف العقيلي في بعض أمورهم. قال: وكان مروان بن الحكم يومئذٍ أميراً على المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، فاستعمله على صدقات بني عامر. قال: فوثب ثور بن أبي سمعان بن كعب بن عامر بن عوف بن عقيل على توبة بن الحمير فضربه بجرزٍ وعلى توبة الدرع والبيضة، فجرح أنف البيضة وجه توبة. فأمر همام بثور بن أبي سمعان فأقعد بين يدي توبة، فقال: خذ بحقك يا توبة. فقال له توبة: ما كان هذا إلا عن أمرك، وما كان ليجترئ علي عند غيرك. وأم همام صوبانة بنت جون بن عامر بن عوف بن عقيل فاتهمه توبة لذلك، فانصرف ولم يقتص منه. فمكثوا غير كثيرٍ، وإن توبة بلغه أن ثور بن أبي سمعان خرج في نفرٍ من رهطه إلى ماء من مياه قومه يقال له قوباء يريدون مالهم بموضع يقال له جرير بتثليثٍ قال: وبينهما فلاة فاتبعه توبة في ناس من أصحابه، فسأل عنه وبحث حتى ذكر له أنه عند رجلٍ من بني عامر بن عقيل يقال له سارية بن عمير بن أبي عدي وكان صديقاً لتوبة. فقال توبة: والله لا نطرقهم عند سارية الليلة حتى يخرجوا عنه. فأرادوا أن يخرجوا حين يصبحون. فقال لهم سارية. ادرعوا الليل؛ فإني لا آمن توبة عليكم الليلة فإنه لا ينام عن طلبكم. قال: فلما تعشوا ادرعوا الليل في الفلاة. وأقعد له توبة رجلين فغفل صاحبا توبة. فلما ذهب الليل فزع توبة وقال: لقد اغتررت إلى رجلين ما صنعا شيئاً، وإني لأعلم أنهم لم يصبحوا بهذه البلاد، فاقتص آثارهم، فإذا بأثر القوم قد خرجوا، فبعث إلى صاحبيه فأتياه، فقال: دونكما هذا الجمل فأوقراه من الماء في مزادتيه ثم اتبعا أثري، فإن خفي عليكما أن تدركاني فإني سأنور لكما إن أمسيتما دوني. وخرج توبة في أثر القوم مسرعاً، حتى إذ انتصف النهار جاوز علماً يقال له أفيح في الغائط. فقال لأصحابه: هل ترون سمراتٍ إلى جنب قرون بقرٍ؟ وقرون بقر مكان هنالك فإن ذلك مقيل القوم لم يتجاوزوه فليس وراءه ظل. فنظروا فقال قائل: أرى رجلاً يقود بعيراً كأنه يقوده لصيدٍ. قال توبة: ذلك ابن الحبترية، وذلك من أرمى من رمى. فمن له يختلجه دون القوم فلا ينذرون بنا؟ قال: فقال عبد الله أخو توبة: أنا له. قال: فاحذر لا يضربنك، وإن استطعت أن تحول بينه وبين أصحابه فافعل. فخلي طريق فرسه في غمضٍ من الأرض، ثم دنا منه فحمل عليه، فرماه لابن الحبترية قال: وبنو الحبتر ناس من مذحج في بني عقيل فعقر فرس عبد الله أخي توبة واختل السهم ساق عبد الله، فانحاز الرجل حتى أتى أصحابه فأنذرهم، فجمعوا ركابهم وكانت متفرقةً. قال: وغشيهم توبة ومن معه، فلما رأوا ذلك صفوا رحالهم وجعلوا السمرات في نحورهم وأخذوا سلاحهم ودرقهم، وزحف إليهم توبة، فارتمى القوم لا يغني أحداً منهم شيئاً في أحد. ثم إن توبة وكان يترس له أخوه عبد الله، قال: يا أخي لا تترس لي؛ فإني رأيت ثوراً كثيراً ما يرفع الترس، عسى أن أوافق منه عند رفعه مرمى فأرميه. قال: ففعل، فرماه توبة على حلمة ثديه فصرعه. وجال القوم فغشيهم توبة وأصحابه فوضعوا فيهم السلاح حتى تركوهم صرعى وهم سبعة نفرٍ. ثم إن ثوراً قال انتزعوا هذا السهم عني. قال توبة: ما وضعناه لننتزعه. فقال أصحاب توبة: انج بنا نأخذ آثارنا ونلحق راويتنا، فقد أخذنا ثأرنا من هؤلاء وقد متنا عطشاً . قال توبة: كيف بهؤلاء القوم الذي لا يمنعون ولا يمتنعون !. فقالوا: أبعدهم الله. قال توبة: ما أنا بفاعل وما هم إلا عشيرتكم، ولكن تجيء الراوية فأضع لهم ماءً وأغسل عنهم دماءهم وأخيل عليهم من السباع والطير لا تأكلهم حتى أوذن قومهم بهم بعمقٍ . فأقام توبة حتى أتته الراوية قبل الليل، فسقاهم من الماء وغسل عنهم الدماء، وجعل في أساقيهم ماءً، ثم خيل لهم بالثياب على الشجر، ثم مضى حتى طرق من الليل سارية بن عويمر بن أبي عدي العقيلي فقال: إنا قد تركنا رهطاً من قومكم بسمراتٍ من قرون بقر، فأدركوهم، فمن كان حياً فداووه، ومن كان ميتاً فادفنوه، ثم انصرف فلحق بقومه. وصبح سارية القوم فاحتملهم وقد مات ثور بن أبي سمعان ولم يمت غيره. فلم يزل توبة خائفاً. وكان السليل بن ثورٍالمقتول رامياً كثير البغي والشر، فأخبر بغرةٍ من توبة وهو بقنةٍ من قنان الشرف يقال لها قنة بني الحمير، فركب في نحو ثلاثين فارساً حتى طرقه؛ فترقى توبة ورجل من إخوته في الجبل، فأحاطوا بالبيوت، فناداهم وهو في الجبل: هأنذا من تبغون فاجتنبوا البيوت. فقالوا: إنكم لن تستطيعوه وهو في الجبل، ولكن خذوا ما استدف لكم من ماله، فأخذوا أفراساً له ولإخوته وانصرفوا. ثم إن توبة غزاهم، فمر على أفلت بن حزن بن معاوية بن خفاجة ببطن بيشة . فقال: يا توبة أين تريد؟ قال: أريد الصبيان من بني عوف بن عقيلٍ. قال: لا تفعل فإن القوم قاتلوك، فمهلاً. قال: لا أقلع عنهم ما عشت، ثم ضرب بطن فرسه فاستمر به يحضر وهو يرتجز ويقول:

تنجو إذا قيل لـها يعـاط تنجو بهم من خلل الأمشاط

حتى انتهى إلى مكانٍ، يقال له حجر الراشدة، ظليلٍ، أسفله كالعمود، وأعلاه منتشر، فاستظل فيه هو وأصحابه. حتى إذا كان بالهاجرة مرت عليه

إبل هبيرة بن السمين أخي بني عوف بن عقيلٍ واردةً ماءً لهم يقال له طلوب، فأخذها وخلى طريق راعيها، وقال له: إذا أتيت صدغ البقرة مولاك فأخبره أن توبة أخذ الإبل، ثم انصرف توبة يطرد الإبل . قال: فلما ورد العبد على مولاه فأخبره نادى في بني عوف وقال: حتام هذا! فتعاقدوا بينهم نحواً من ثلاثين فارساً ثم اتبعوه. ونهضت امرأة من بني خثعم من بني الهرة كانت في بني عوف وكانت تؤخذ لهم، فقالت: أروني أثره، فخرجوا بها فأروها أثره، فأخذت من ترابه فسافته فقالت: اطلبوه فإنه سيحبس عليكم. فطلبوه فسبقهم، فتلاوموا بينهم وقالوا: ما نرى له أثراً، وما نراه إلا وقد سبقكم. قال: وخرج توبة حتى إذا كان بالمضجع من أرض بني كلابٍ جعل نذارته وحبس أصحابه. حتىإذا كان بشعبٍ من هضبةٍ يقال لها هند من كبد المضجع جعل ابن عمٍ له يقال له قابض بن عبد الله ربيئةً له على رأس الهضبة فقال: انظر فإن شخص لك شيء فأعلمنا. فقال عبد الله بن الحمير: يا توبة إنك حائن ، أذكرك الله، فوالله ما رأيت يوماً أشبه بسمرات بني عوفٍ يوم أدركناهم في ساعتهم التي أتيناهم فيها منه ، فانج إن كان بك نجاة. قال: دعني، فقد جعلت ربيئة ينظر لنا. قال: ويرجع بنو عوف بن عقيل حين لم يجدوا أثر توبة فيلقون رجلاً من غني، فقالوا له: هل أحسست في مجيئك أثر خيلٍ أو أثر إبلٍ؟ قال: لا والله. قالوا: كذبت وضربوه. فقال: يا قوم لا تضربوني؛ فإني لم أجد أثراً، ولقد رأيت زهاء كذا وكذا إبلاً شخوصاً في هاتيك الهضبة، وما أدري ما هو. فبعثوا رجلاً منهم يقال له يزيد بن رويبة لينظر حتى ما في الهضبة. فأشرف على القوم، فلما رآهم ألوى بثوبه لأصحابه حتى جاءوا، فحمل أولهم على القوم حتى غشي توبة، وفزع توبة وأخوه إلى خيلهما، فقام توبة إلى فرسه فغلبته لا يقدر على أن يلجمها ولا وقفت له، فخلى طريقها، وغشيه الرجل فاعتنقه، فصرعه توبة وهو مدهوش وقد لبس الدرع على السيف فانتزعه ثم أهوى به ليزيد بن رويبة فاتقاه بيده فقطع منها، وجعل يزيد يناشده رحم صفية، وصفية أم له من بني خفاجة. وغشي القوم توبة من ورائه فضربوه فقتلوه، وعلقهم عبد الله بن الحمير يطعنهم بالرمح حتى انكسر. قال: فلما فرغوا من توبة لووا على عبد الله بن الحمير فضربوا رجله فقطعوها. فلما وقع بالأرض أشرع سيفه وحده ثم جثا على ركبتيه وجعل يقول: هلموا، ولم يشعر القوم بما أصابه. وانصرف بنو عوف بن عقيل، وولى قابض منهزماً حتى لحق بعبد العزيز بن زرارة الكلابي فأخبره الخبر. قال: فركب عبد العزيز حتى أتى توبة فدفنه وضم أخاه. ثم ترافع القوم إلى مروان ابن الحكم، فكافأ بين الدمين وحملت الجراحات. ونزل بنو عوفٍ بن عقيلٍ البادية ولحقوا بالجزيرة والشام .

رواية لأبي عبيدة في مقتله وسببه: قال أبو عبيدة: وقد كان توبة أيضاً يغير زمن معاوية بن أبي سفيان على قضاعة وخثعمٍ ومهرة وبني الحارث بن كعبٍ. وكانت بينهم وبين بني عقيلٍ مغاورات ، فكان توبة إذا أراد الغارة عليهم حمل الماء معه في الروايا ثم دفنه في بعض المفازة على مسيرة يومٍ منها، فيصيب ما قدر عليه من إبلهم فيدخلها المفازة فيطلبه القوم، فإن دخل المفازة أعجزهم فلم يقدروا عليه فانصرفوا عنه. قال: فمكث كذلك حيناً. ثم إنه أغار في المرة الأولى التي قتل فيها هو وأخوه عبد الله بن الحمير ورجل يقال له قابض بن أبي عقيل ، فوجد القوم قد حذروا فانصرف توبة مخفقاً لم يصب شيئاً. فمر برجل من بني عوف بن عامر بن عقيلٍ متنحياً عن قومه، فقتله توبة وقتل رجلاً كان معه من رهطه واطرد إبلهما، ثم خرج عامداً يريد عبد العزيز بن زرارة بن جزء بن سفيان بن عوف بن كلاب، وخرج ابن عم لثور بن أبي سمعان المقتول، فقال له خزيمة: صر إلى بني عوف بن عامر بن عقيلٍ فأخبرهم الخبر. فركبوا في طلب توبة فأدركوه في أرض بني خفاجة، وقد أمن في نفسه فنزل، وقد كان أسرى يومه وليلته، فاستظل ببرديه وألقى عنه درعه وخلى عن فرسه الخوصاء تتردد قريباً منه، وجعل قابضاً ربيئةً له ونام، فأقبلت بنو عوف بن عامر متقاطرين لئلا يفطن لهم أحد، فنظر قابض فأبصر رجلاً منهم إلى توبة فأنبهه. فقال توبة: ما رأيت؟ قال: رأيت شخص رجلٍ واحد، فنام ولم يكترث له، وعاد قابض إلى مكانه فغلبته عيناه فنام. قال: فأقبل القوم على تلك الحال فلم يشعر بهم قابض حتى غشوه، فلما رآهم طار على فرسه. وأقبل القوم إلى توبة، وكان أول من تقدم غلام أمرد على فرس عريٍ يقال له يزيد بن رويبة ابن سالم بن كعب بن عوف بن عامر بن عقيلٍ؛ ثم تلاه ابن عمه عبد الله بن سالم ثم تتابعوا. فلما سمع توبة وقع الخيل نهض وهو وسنان فلبس درعه على سيفه ثم صوت بفرسه الخوصاء فأتته، فلما أراد أن يركبها أهوت ترمحه ، ثلاث مراتٍ، فلما رأى ذلك لطم وجهها فأدبرت، وحال القوم بينه وبينها. فأخذ رمحه وشد على يزيد بن رويبة فطعنه فأنفذ فخذيه جميعاً . وشد على توبة ابن عم الغلام عبد الله بن سالم فطعنه فقتله، وقطعوا رجل عبد الله. فلما رجع عبد الله بعد ذلك إلى قومه لاموه وقالوا له: فررت عن اخيك، فقال عبد الله بن الحمير في ذلك . قال أبو عبيدة وحدثني أيضاً مزرع بن عبد الله بن همام بن مطرف بن الأعلم قال: كان أهل دارٍ من بني جشم بن بكر بن هوازن يقال لهم بنو الشريد حلفاء لبني عداد بن خفاجة في الإسلام، فكان بينهم وبين خميس بن ربيعة رهط قومه قتال على ماءةٍ تدعى الحليفة وعامتها لجد بن همام. قال وشهد عبد الله بن الحمير ذلك وهو أعرج، عرج يوم قتل توبة فلم يغن كثير غناءٍ. فقالت بنو عقيل: لو توبة تلقاهم لبلوا منه بغير أفوق ناصل . فقال عبد الله بن الحمير يعتذر إليهم: قصيدة لعبد الله بن الحمير يعتذر فيها إلى قومه بعد قتل أخيه:

تأوبني بعارمة الهموم ... كما يعتاد ذا الدين الغريم
كأن الهم ليس يريد غيري ... ولو أمسى له نبط وروم
علام تقوم عاذلتي تلوم ... تؤرقني وما إنجاب الصريم
فقلت لها رويداً كي تجلى ... غواشي النوم والليل البهيم
ألما تعلمي أني قديماً ... إذا ما شئت أعصي من يلوم
وأن المرء لا يدري إذا ما ... يهم علام تحمله الهموم

وقد تعدي على الحاجات حرف كركن الرعن ذعلبة عقيم
مداخلة الفقار وذات لوثٍ على الحزان مقحمة غشوم
كأن الرحل منها فوق جأبٍ بذات الحاذ معقله الصريم
طباه برجلة البقار برق فبات الليل منتصباً يشيم
فبينا ذاك إذ هبطت عليه دلوح المزن واهية هزيم
تهب لها الشمال فتمتريها ويعقبها بنافحةٍ نسيم
يكب إذا الرذاذ جرى عليه كما يصغي إلى الآسي الأميم
إذا ما قال أقشع جانباه نشت من كل ناحيةٍ غيوم
فاشعر ليلة أرقاً وقراً يسهره كما أرق السليم
ألا من يشتري رجلاً برجلٍ تخونها السلاح فما تسوم
تلومك في القتال بنو عقيلٍ وكيف قتال أعرج لا يقوم
ولو كنت القتيل وكان حياً لقاتل لا ألف ولا سئوم
ولا جثامة ورع هيوب ولا ضرع إذا يمسي جثوم

قال: ثم إن خفاجة رهط توبة جمعوا لبني عوف بن عامر عقيل الذين قتلوا توبة، فلما بلغهم الخبر لحقوا ببني الحارث بن كعب، ثم افترقت بنو خفاجة. فلما بلغ ذلك بني عوف رجعوا، فجمعت لهم بنو خفاجة أيضاً قبائل عقيل. فلما رأت ذلك بنو عوف بن عامر بن عقيل لحقوا بالجزيرة فنزلوها؛ وهم رهط إسحاق بن مسافر بن ربيعة بن عاصم بن عمرو بن عامر بن عقيل. ثم إن بني عامر بن صعصعة صاروا في أمرهم إلى مروان بن الحكم وهو والي المدينة لمعاوية بن أبي سفيان، فقالوا: ننشدك الله أن تفرق جماعتنا، فعقل توبة وعقل الآخرين معاقل العرب مائةٌ من الإبل، فأدتها بنو عامر. قال: فخرجت بنو عوف بن عامر قتلة توبة فلحقوا بالجزيرة، فلم يبق بالعالية منهم أحد، وأقامت بنو ربيعة بن عقيلٍ وعروة ابن عقيل وعبادة بن عقيل بمكانهم بالبادية .

رواية أبي عبيدة عن مزرع في مقتله وسببه: قال أبو عبيدة وحدثنا مزرع بن عمرو بن همام قال أبو عبيدة: وكان معي أبو الخطاب وغيره قال: توبة بن حمير بن ربيعة بن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيلٍ، وأمه زبيدة. فهاج بينه وبين السليل بن ثور بن أبي سمعان بن عامر بن عوف بن عقيل كلام، وكان شريراً ونظير توبة في القوة والبأس، فبلغ الحور وهو الكلام إلى أن أوعد كل واحدٍ منهما صاحبه، فالتقى بعد ذلك توبة والسليل على غديرٍ من ماء السماء، فرمى توبة السليل فقتله. ثم إن توبة أغار ثانيةً على إبل بني السمين بن كعب بن عوف بن عقيلٍ واردةً ماءهم فاطردها. واتبعوه وهم سبعة نفر: يزيد بن رويبة، وعبد الله بن سالمٍ، ومعاوية بن عبد الله قال أبو عبيدة: ولم يذكر غير هؤلاء فانصرفوا يجنبون الخيل يحملون المزاد، فقصوا أثر توبة وأصحابه فوجدوهم وقد أخذوا في المضجع من أرض بني كلابٍ في أرضٍ دمثةٍ تربةٍ، فضلت فرس توبة الخوصاء من الليل، فأقام واضطجع حتى أصبح، وساق أصحابه الإبل، وهم ثلاثة نفرٍ سوى توبة: المحرز أحد بني عمرو بن كلابٍ، وقابض بن أبي عقيل أحد بني خفاجة، وعبد الله بن حمير أخو توبة لأمه وأبيه. فلما أصبح توبة إذا فرسه الخوصاء راتعة أدنى ظلمٍ قريبة منه ليس دونها وجاح فأشلاها حتى أتته، ثم خرج يعدو حتى لحق بأصحابه، فانتهوا إلى هضبةٍ بكبد المضجع، فارتقى توبة فوقها ينظر الطلب ، فرآه القوم ولم يرهم عند طلوع الشمس، وبالت الخوصاء حين انتهت إلى الهضبة، فقال القوم: إنه لطائر أو إنسان. فركب يزيد بن رويبة وكان أحدث القوم سناً، وأمه بنت عم توبة، فأغار ركضاً حتى انتهى إلى الهضبة فإذا بول الفرس وعليه بقية من رغوته، وإذا أثر توبة يعرفونه، فرجع فخبر أصحابه. واندفع توبة وأصحابه حتى نزلوا إلى طرف هضبةٍ يقال لها الشجر من أرض بني كلاب، فقالوا بالظهيرة، فلم يشعر شعره إلا والإبل قد نفرت، وكانت بركاً بالهاجرة، من وثيد الخيل. فوثب توبة، وكان لا يضع السيف، فصب الدرع على السيف متقلده وهلاً، وداجت القوم، فطلب قائم السيف فلم يقدر عليه تحت الدرع فلم يستطع سله، فطار إلى الرمح فأخذه، فأهوى به طعناً إلى يزيد بن رويبة، وقد كان يزيد عاهد الله ليقتلنه أو ليأخذنه، فأنفذ فخذ يزيد، واعتنقه يزيد فعض بوجنتيه، واستدبره عبد الله بالسيف ففلق رأس توبة، وهيت توبة حين اعتوره الرجلان بقابض: يا قابض فلم يلو عليه، وفر قابض والكلابي، وذب عبد الله بن حمير عن أخيه، فأهوى له معاوية بن عبد الله بالسيف فأصاب ركبته فاختلعت أي سقطت. فأتى قابض من فوره ذلك عبد العزيز بن زرارة أحد بني أبي بكر بن كلابٍ فقال: قتل توبة. فنادى في قومه، فجاءه أبوه زرارة فقال: أين تريد؟ فقال: قتل توبة. فقل أبوه طوط سحقاً لك! أتطلب بدم توبة أن قتلته بنو عقيلٍ ظالماً لها باغياً عادياً عليها! قال: لكني أجنه إذاً. قال أبوه: أما هذه فنعم. فألقى السلاح وانطلق حتى أجنه، وحمل أخاه عبد الله بن حمير. قال: فأهل البادية يزعمون أن محرزاً سحر فأخذ عن سيفه. فقالت ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرحالة بن شداد بن كعب ابن معاوية فارس الهرار ابن عبادة بن عقيلٍ: رثت ليلى توبة بعدة قصائد:

نظرت وركن من ذقانين دونه مفاوز حوضي أي نظرة ناظر

لأونس إن لم يقصر الطرف عنهم فلم تقصر الأخبار والطرف قاصري
فوارس أجلي شأوها عن عقيرةٍ لعاقرها فيها عقيرة عاقر

شأوها : سرعتها وهو الطلق وجريها، وقال غيره: غايتها. عقيرة: تعني توبة. لعاقرها: تعني لعاقر توبة، تريد يزيد بن رويبة. ووجه آخر : في عقيرة عاقرٍ معنى مدحٍ أي عقيرة كريمة لعاقرها. ووجه آخر: عقيرة لعاقرها: فيها الهلاك بعقرها

فآنست خيلاً بالرقي مغيرةً سوابقها مثل القطا المتواتر
قتيل بني عوفٍ وأيصر دونه قتيل بني عوفٍ قتيل يحابر
توارده أسيافهم فكأنما تصادرن عن أقطاع أبيض باتر
من الهندوانيات في كل قطعةٍ دم زل عن أثرٍ من السيف ظاهر
أتته المنايا دون زغفٍ حصينةٍ وأسمر خطيٍ وخوصاء ضامر
على كل حرداء السراة وسابحٍ درأن بشباك الحديد زوافر
عوابس تعدو الثعلبية ضمراً وهن شواحٍ بالشكيم الشواجر
فلا يبعدنك الله يا توب إنما لقاء المنايا دارعاً مثل حاسر
فإلا تك القتلى بواءً فإنكم ستلقون يوماً ورده غير صادر
وإن السليل إذ يباوي قتيلكم كمرحومةٍ من عركها غير طاهر
فإن تكن القتلى بواءً فإنكم فتىً ما قتلتم آل عوف بن عامر
فتىً لا تخطاه الرفاق ولا يرى لقدرٍ عيالاً دون جارٍ مجاور
ولا تأخذ الكوم الجلاد رماحها لتوبة في نحس الشتاء الصنابر
إذا ما رأته قائماً بسلاحه تقته الخفاف بالثقال البهازر
إذا لم يجد منها برسلٍ فقصره ذرى المرهفت والقلاص التواجر
قرى سيفه منها مشاشاً وضيفه سنام المهاريس السباط المشافر
وتوبة أحيا من فتاةٍ حييةٍ وأجرأ من ليثٍ بخفان خادر
ونعم الفتى إن كان توبة فاجراً وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر
فتى ينهل الحاجات ثم يعلها فيطلعها عنه ثنايا المصادر

خرج توبة إلى الشام فلقيه زنجي وخبره معه: أخبرني الحسن بن علي عن عبد الله بن أبي سعدٍ عن أحمد بن معاوية بن بكر قال حدثني أبو الجراح العقيلي عن أمه دينار بنت خيبري بن الحمير عن توبة بن الحمير قال: خرجت إلى الشام، فبينا أنا أسير ليلةً في بلادٍ لا أنيس بها ذات شجرٍ نزلت لأريح، وأخذت ترسي فألقيته فوقي، وألقيت نفسي بين المضطجع والبارك. فلما وجدت طعم النوم إذا شيء قد تجللني عظيم ثقيل قد تجللني عظيم ثقيل قد برك علي، ونشزت عنه ثم قمصت منه قماصاً فرميت به على وجهه، وجلست إلى راحلتي فانتضيت السيف، ونهض نحوي فضربته ضربة انخزل منها، وعدت إلى موضعي وأنا لا أدري ما هو أإنسان أم سبع، فلما أصبحت إذا هو أسود زنجي يضرب برجليه وقد قطعت وسطه حتى كدت أبريه، وانتهيت إلى ناقةٍ مناخةٍ موقرةٍ ثياباً من سلبه، وإذا جارية شابة ناهد وقد أوثقها وقرنها بناقته. فسألتها عن خبرها، فأخبرتني أنه قتل مولاها وأخذها منه. فأخذت الجميع وعدت إلى أهلي. قال أبو الجراح قالت أمي: وأنا أدركتها في الحي تخدم أهلنا .

حديث معاوية مع ليلى في توبة: أخبرنا اليزيدي عن ثعلب عن ابن الأعرابي قال أخبرنا عطاء بن مصعب القرشي عن عاصم الليثي عن يونس بن حبيبٍ الضبي عن أبي عمرو بن العلاء قال: سأل معاوية بن أبي سفيان ليلى الخيلية عن توبة بن الحمير فقال: ويحك يا ليلى! أكما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين ليس كل ما يقول الناس حقاً، والناس شجرة بغيٍ يحسدون أهل النعم حيث كانوا وعلى من كانت. ولقد كان يا أمير المؤمنين سبط البنان، حديد اللسان، شجاً للأقران، كريم المخبر ، عفيف المئزر، جميل المنظر. وهو يا أمير المؤمنين كما قلت له. قال: وما قلت له؟ قالت قلت ولم أتعد الحق وعلمي فيه:

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره ألد ملد يغلب الحق باطله

إذا حل ركب في ذراه وظلـه ليمنعهم مما تخـاف نـوازلـه
حماهم بنصل السيف من كل فادح يخافونه حتى تموت خصـائلـه

فقال لها معاوية: ويحك! يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً . فقالت من ساعتها:

معاذ إلهي كـان واللـه سيدا جواداً على العلات جماً نوافلـه
أغر خفاجياً يرى البخـل سبةً تحلب كفاه النـدى وأنـاملـه
عفيفاً بعيد الهم صلباً قنـاتـه جميلاً محياه قليلاً غـوائلـه
وقد علم الجوع الذي بات سارياً على الضيف والجيران أنك قاتله
وأنك رحب الباع يا توب بالقرى إذا ما لئيم القوم ضاقت منازلـه
يبيت قرير العين من بات جـاره ويضحي بخيرٍ ضيفه ومنازلـه

فقال لها معاوية: ويحك يا ليلى! لقد جزت بتوبة قدره. فقالت: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أني مقصرة في نعته وأني لا أبلغ كنه ما هو أهله. فقال لها معاوية: من أي الرجال كان؟ قالت:

أتته المنايا حين تم تـمـامـه وأقصر عنه كل قرنٍ يطاوله
وكان كليث الغاب يحمي عرينه وترضى به أشباله وحلائلـه
غصوب حليم حين يطلب حلمه وسم زعاف لا تصاب مقاتلـه

قال: فأمر لها بجائزةٍ عظيمة وقال لها: خبريني بأجود ما قلت فيه من الشعر. قالت: يا أمير المؤمنين، ما قلت فيه شيئاً إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر منه. ولقد أجدت حين قلت:

جزى الله خيراً والـجـزاء بـكـفـه فتىً من عقيلٍ سـاد غـير مـكـلـف
فتىً كانت الدنـيا تـهـون بـأسـرهـا عليه ولا ينـفـك جـم الـتـصـرف
ينـال عـلـيات الآمـور بـهـونةٍ إذا هي أعيت كـل خـرقٍ مـشـرف
هو الذوب بل أري الخـلايا شـبـيهـه بدرياقةٍ من خمـر بـيسـان قـرقـف
فيا توب ما في العيش خـير ولا نـدٍى يعد وقد أمست فـي تـرب نـفـنـف
وما نلت منك النصف حتى ارتميت بك ال منايا بسهمٍ صـائب الـوقـع أعـجـف
فيا ألف ألفٍ كنـت حـياً مـسـلـمـاً لألقاك مثل القسـور الـمـتـطـرف
كما كنت إذ كنت المنحى من الردى إذا الخيل جالت بالقنا المتقصـف
وكم من لهيفٍ محجرٍ قد أجبتـه بأبيض قطاع الضريبة مـرهـف
فأنقذته والمـوت يحـرق نـابـه عليه ولم يطعن ولـم يتـنـسـف

ما كان بين توبة وجميل أمام بثينة: أخبرني الحسن بن علي عن ابن مهرويه عن ابن سعد عن القحذمي عن محارب بن غصين العقيلي قال: كان توبة قد خرج إلى الشام، فمر ببني عذرة، فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميلٍ، وذلك قبل أن يظهر حبه لها. فقال له جميل: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحمير. قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فشدت عليه بثينة ملحفة مورسة فأتزر بها، ثم صارعه فصرعه جميل. ثم قال: هل لك في النضال ؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل. ثم قال له: هل لك في السباق؟ فقال: نعم، فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا إنما تفعل بريح هذه الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادي، فصرعه توبة ونضله وسبقه .

سأل عبد الملك بن مروان ليلى عما رآه توبة فيها فأجابته: أخبرنا إبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة قال: بلغني أن ليلى الأخيلية دخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنت وعجزت، فقال لها: ما رأى توبة فيك حين هويك؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين ولوك. فضحك عبد الملك حتى بدت

له سن سوداء كان يخفيها .

وفود ليلى على الحجاج وحديثه معها: وأخبرني الحسن بن علي عن ابن أبي سعد عن أحمد بن رشيد بن حكيم الهلالي عن أيوب بن عمرو عن رجلٍ من بني عامر يقال له ورقاء قال: كنت عند الحجاج بن يوسف، فدخل عليه الآذن فقال: أصلح الله الأمير، بالباب امرأة تهدر كما يهدر البعير الناد . قال: أدخلها. فلما دخلت نسبها فانتسبت له. فقال: ما أتى بك يا ليلى؟ قالت: إخلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد، وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرد . قال: فأخبريني عن الأرض. قالت: الأرض مقشعرة ، والفجاج مغبرة، وذو الغنى مختل، وذو الحد منفل. قال: وما سبب ذلك؟ قالت: أصابتنا سنون مجحفة مظلمة، لم تدع لنا فصيلاً ولا ربعاً، ولم تبق عافطةً ولا ناقطةً؛ فقد أهلكت الرجال، ومزقت العيال، وأفسدت الأموال، ثم أنشدته الأبيات التي ذكرناه متقدماً . وقال في الخبر: قال الحجاج: هذه التي تقول :

نحن الأخايل لا يزال غلامنـا ... حتى يدب على العصا مشهوراً
تبكي الرماح إذا فقدن أكفنـا ... جزعاً وتعرفنا الرفاق بحـوراً

ثم قال لها: يا ليلى، أنشدينا بعض شعرك في توبة، فأنشدته قولها:

لعمرك ما بالموت عار على الفتى ... إذا لم تصبه في الحياة المـعـاير
وما أحد حي وإن عاش سـالـمـاً ... بأخلد ممن غيبتـه الـمـقـابـر
فلا الحي مما أحدث الدهر معتـب ... ولا الميت إن لم يصبر الحي ناشر
وكل جديدٍ أو شبابٍ إلـى بـلـى ... وكل امرئٍ يوماً إلى الموت صائر
قتيل بني عوفٍ فيا لهـفتـا لـه ... وما كنت إياهم عـلـيه أحـاذر
ولكنني أخشـى عـلـيه قـبـيلةً ... لها بدروب الشأم بادٍ وحـاضـر

فقال الحجاج لحاجبه: اذهب فاقطع لسانها. فدعا لها بالحجام ليقطع لسانها، فقالت: ويلك! إنما قال لك الأمير اقطع لسانها بالصلة والعطاء، فارجع إليه واستأذنه. فرجع إليه فاستأمره ، فاستشاط عليه وهم بقطع لسانه، ثم أمر بها فأدخلت عليه، فقالت: كاد وعهد الله يقطع مقولي، وأنشدته:

حجاج أنت الذي لا فـوقـه أحـد ... إلا الخليفة والمستغفر الصـمـد
حجاج أنت سنان الحرب إن نـهجت ... وأنت للناس في الدواجي لنا تقـد

أخبرنا الحسن قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثني أبو الحسن ميمون الموصلي عن سلمة بن أيوب بن مسلمة الهمداني قال: كان جدي عند الحجاج، فدخلت عليه امرأة برزة ، فانتسبت له فإذا هي ليلى الأخيلية. وأخبرني بهذا الخبر محمد بن العباس اليزيدي، وأخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال: كنت عند الحجاج. وأخبرني وكيع عن عن إسماعيل بن محمد عن المدائني عن جويرية عن بشر بن عبد الله بن أبي بكر: أن ليلى دخلت على الحجاج، ثم ذكر مثل الخبر الأول، وزاد فيه: فلما قالت:

غلام إذا هز القناة سقاها

قال لها: لا تقولي غلام، قولي همام. وقال فيه: فأمر لها بمائتين. فقالت: زدني، فقال: اجعلوها ثلاثمائة. فقال بعض جلسائه: إنها غنم. فقالت: الأمير أكرم من ذلك وأعظم قدراً من أن يأمر لي إلا بالإبل. قال: فاستحيا وأمر لها بثلاثمائة بعيرٍ، وإنما كان أمر لها بغنمٍ لا إبل .

وأخبرنا به وكيع عن إبراهيم بن إسحاق الصالحي عن عمر بن شبة عن عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه، وقال فيه: ألا قلت مكان غلامٍ همام! وذكر باقي الخبر الذي ذكره من تقدم، وقال فيه: فقال لها: أنشدينا ما قلت في توبة، فأنشدتها قولها:

فإن تكن القتلى بـواءً فـإنـكـم ... فتىً ما قلتم آل عوف بن عامـر
فتىً كان أحيا من فـتـاةٍ حـييةٍ ... وأشجع من ليثٍ بخفـان خـادر

أتته المنـايا دون درع حـصـينةٍ وأسمر خطي وجرداء ضامـر
فنعم الفتى إن كان توبة فـاجـراً وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر
كأن فتى الفتيان تـوبة لـم ينـخ قلائص يفحصن الحصا بالكراكر

فقال لها أسماء بن خارجة: أيتها المرأة إنك لتصفين هذا الرجل بشيء ما تعرفه العرب فيه. فقالت: أيها الرجل هل رأيت توبة قط؟ قال: لا. فقالت: أما والله ولو رأيته لوددت أن كل عاتقٍ في بيتك حامل منه؛ فكأنما فقيء في وجه أسماء حب الرمان. فقال له الحجاج: وما كان لك ولها! .

وفاتها وكيف كانت: أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن أبي سعد عن محمد بن علي بن المغيرة قال سمعت أبي يقول سمعت الأصمعي يذكر أن الحجاج أمر لها بعشرة آلاف درهم، وقال لها: هل لك من حاجةٍ؟ قالت: نعم أصلح الله الأمير، تحملني إلى ابن عمي قتيبة بن مسلمٍ، وهو على خراسان يومئذٍ فحملها إليه، فأجازها وأقبلت راجعة تريد البادية، فلما كانت بالري ماتت، فقبرها هناك. هكذا ذكر الأصمعي في وفاتها وهو غلط.
وقد أخبرني عمي عن الحزنبل الأصبهاني عمن أخبره عن المدائني، وأخبرني الحسن بن علي عن ابن مهدي عن ابن أبي سعدٍ عن محمد بن الحسن النخعي عن ابن الخصيب الكاتب، واللفظ في الخبر للحزنبل، وروايته أتم: أن ليلى الأخيلية أقبلت من سفرٍ، فمرت بقبر توبة ومعها زوجها وهي في هودجٍ لها. فقالت: والله لا أبرح حتى أسلم على توبة، فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلا أن تلم به. فلما كثر ذلك منها تركها، فصعدت أكمةً عليها قبر توبة، فقالت: السلام عليك يا توبة، ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت: ما عرفت له كذبةً قط قبل هذا. قالوا: وكيف؟ قالت: أليس القائل: صوت:

ولو أن ليلى الأخيلية سلـمـت علي ودوني تـربة وصـفـائح
لسلمت تسليم البـشـاشة أو زقـا إليها صدًى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بمـا لا أنـالـه ألا كل ما قرت به العين صالـح

فما باله لم يسلم علي كما قال !. وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل، فنفر فرمى بليلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدفنت إلى جنبه. وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها.

الديوان

طربت وما هذا بساعة مطرب

طربت وما هذا بساعة مطرب

إلى الحيّ حَلّوا بين عَاذٍ فجُبْجُبِ

قَدِيمافأَمْسَتْ دارُهُم قد تلعبتْ

بها خرقات الريح من كل ملعبِ

وكَمْ قَدْ رَأى رائيهم ورَأيتُه

بها لِي مِنْ عمٍّ كريم ومن أبِ

فوارس من آل النفاضة سادة

ومن آل كَعْبِ سؤددٌ غيرُ مُعْقَبِ

وحيٍّ حريدٍ قد صبحْنا بغارةٍ

فلم يمس بيت منهم تحت كوكبِ

سننا عليهم ، كل جرداء شطبة

لجوج تباري كل أجرد شرجبِ

أجشُّ هزيمٌ في الخَبارإذا انتحى

هَوادي عِطفَيْه العِنان مُقرّبِ

لوحشِيها من جانبَي زَفيَانِها

حفيف كخذروف الوليد المنقبِ

إذا جاشَ بالماءِ الحَميمِ سِجالُها

نَضَخْنَ به نَضْحَ البمزادِ المسرَّبِ

فذر ذا ، ولكن تمنيت راكباً

إذا قالَ قوْلاً صادِقاً لم يكذّبِ

له ناقة عندي وساع وكورها

كلا مرفقيها عن رحاها بمجذبِ

إذا حركتها رحلة جنحت به

جنوح القطاة تنتحي كل سبسبِ

جنوح قطاة الورد في عصب القطا

قَربْنَ مِياهَ النَّهْي منْ كلّ مَقرَبِ

فغادين بالأجزاع فوق صوائق

ومدفع ذات العين أعذب مشربِ

فَظلْنَ نَشَاوى بالعُيون كأنَّها

شَروبٌ بَدَتْ عنْ مرزُبان مُحجَبِ

فنالتْ قَلِيلاً شَافيا وتعجَّلتْ

لنادلها بين الشباك وتنضبِ

تبيت بمَوماةٍ وتصْبحُ ثَاويا

بها في أفاحيص الغوي المعصبِ

وضمت إلى جوف جناحاً وجؤجؤاً

وناطتْ قَلِيلاً في سِقاءٍ مُجبَبِ

إذا فترت ضرب الجناحين عاقبت

عَلَى شُزنيها مَنْكبا بعد مَنكبِ

فلما أحسا جرسها وتضورا

وأوبتَها من ذلك المُتأوّبِ

تدلّتْ إلى حُص الرؤوس كأنَّها

كرات غلام من كساء مرنبِ

فلما انجلت عنْها الدُّجىَ وسقتْهما

صبيب سقاء نيط لما يخربِ

غدَت كنواةِ القَسبِ عنْها واصبَحَتْ

تراطنها دوية لم تعربِ

ولي في المُنى ألا يعرّجَ راكِبي

ويحبس عنها كل شيء متربِ

ويفرج بوّابٌ لها عَنْ مُناخها

بقليدهِ بابَ الرتاج المُضبّبِ

إذا ما أنيهت بابن مروان ناقتي

فليسَ عليها لِلهَبانيق مَرْكَبي

أدلت بقربي عنده وقضى لها

قضاءً فلم ينقض ولم يتعقبِ

فإنك بعد الله أنت أميرها

وقنعانها من كل خوف ومرعبِ

فتقضى فلولا أنه كل ريبة

وكل قليل من وعيدك مزهبي

إذا ما ابتغى العادي الظلوم ظلامة

لديَّ، وما استجلبَت للمتجلبِ

تُبادرُ أبناءَ الوَشاةِ وتبتَغي

لها طلبات الحق من كل مطلبِ

إذا أدلجت حتى ترى الصبح واصلت

أديم نهار الشمس مالم تغيبِ

فلما رَأتْ دَارَ الأمير تحاوصَتْ

وصوت المنادي بالأذان المثوبِ

وترجيعَ أصواتِ الخُصوم يردُّها

سقوفُ بيُوتٍ في طِمارٍ مُبوَّبِ

يظل لأعلاها دوي كأنه

تَرَنُّمُ قاري بيتِ نحّال مُجَوَّبِ

مُعَاويَ لمْ أكَدْ آتيك تَهْوي

مُعَاويَ لمْ أكَدْ آتيك تَهْوي

برَحْلِي رَادةُ الأصلاب نابُ

قريح الظهر يفرح أن يراها

إذا وضعتة ليتها الغرابُ

تَجُوبُ الأرْضَ نَحْوك ما تَأنّى

إذا ما الأكمُ قنّعها السَّرابُ

وكنتَ المُرْتَجى وَبِكَ استغاثَتْ

لتُنعِشَها؛إذا بَخُلَ السَّحابُ

عقرت على أنصاب توبة مقرما

عقرت على أنصاب توبة مقرما

بهيدة إذا لم تختفره أقاربه

أريقت جفانُ ابن الخَليع فأصبحَتْ

أُريقَت جفانُ ابن الخَليع فأصبحَتْ

حياض الندى زالت بهن المراتبُ

فعفاته لهفى يطوفون حوله

كما انقضَّ عرشُ البئر، والوِردُ عاصِبُ

كأن فتى الفتيان توبة لم يرض

كأن فتى الفتيان توبة لم يرض

قَضيبا؛ ولَمْ يَمْسَحْ بِقُبَّةِ مُجْرِبِ

دعا قابضاً والموت يخفق ظله

دعا قابضاً والموت يخفق ظله

وما قابض إذ لم يجب بنجيبِ

وآسى عُبيدُ الله ثَمَّ ابنَ أُمّهِ

ولو شَاءَ نجّى يومَ ذاك حَبيبي

غَضُوبٌ للمَهَامهِ ذاتُ لَوْثٍ

غَضُوبٌ للمَهَامهِ ذاتُ لَوْثٍ

أمون الخلق سيرتها غلابُ

ألا كُلُّ ماقالَ الرُوَاةُ وأنْشدُوا

ألا كُلُّ ماقالَ الرُوَاةُ وأنْشدُوا

بها غير ماقالَ السّلوليّ بهْرَجُ

فتى لم يزل يزداد خيراً لدن نشا

فتى لم يزل يزداد خيراً لدن نشا

إلى أن علاه الشيب فوق المسايح

تراه إذا ما الموت حل بورده

ضَروبا على أقرانهِ بالصّفائح

شُجاعٌ لدى الهَيْجاء ثَبْتٌ مشايحٌ

إذا انحازَ عن أقرانه كلُّ سابح

فعاشَ حميدا لا ذميماً فِعالُهُ

وصولاً لقرباه يرى غير كالح

نطرت وركن من ذقانين دونه

نطرت وركن من ذقانين دونه

مَفَاوِزُ حَوْضَى ، أيّ نَظْرةِ نَاظِرِ

لأونسَ إنْ لم يَقْصُرِ الطّرْفُ عنهمُ

فلم تقصر الأخبار والطرف قاصري

فوارس أجلى شاؤها عن عقيرة

لعاقرها فيها عقيرة عاقرِ

سوابقها مثل القطا المتواترِ

قَتِيلُ بني عَوْفٍ وأيصُرُ دونَه

قتيلُ بني عَوْفٍ قتيلُ يُحَايرِ

تَوَاردَه أسيافُهم فكأنّما

تصادرون عن أقطاع أبيض باترِ

من الهندوانيات في كل قطعة

دَمٌ زلّ عن أثرٍ من السَّيف ظاهرِ

أتتْه المنايَا دون زَغْفٍ حصينةٍ

وأسمر خطي وخوصاء ضامرِ

على كل جرداء السراة وسابح

درأن بشباك الحديد زوافر

عوابس بعدو الثعلبية ضمراً

وهُنّ شَوَاحٍ بالشَّكيم الشّواجر

فلا يُبْعدَنكَ اللّه يانَوْبُ إنّما

لِقاءُ المَنايا دارِعَا مثلُ حَاسر

فإلاّ تَكُ القَتْلى بَوَاءً فإنّكم

ستلقون يوماً ورده غير صادر

وإن السليل إذ يباوى قتيلكم

كمرحومةٍ من عَرْكِا غير طاهر

فإن تكن القتلى بواء فإنكم

فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر

فَتًى لا تَخَطَّاه الرَّفاقُ ولا يرى

لقدر عيالاً دون جار مجارو

ولا تأخذُ الكُومُ الجِلادُ رماحَها

لتوبةَ في نَحْسِ الشِّتاء الصَّنَابر

إذا ما رأته قائماً بسلاحه

تَقَتْه الخِفافُ بالنِّقال البَهَازر

إذا لم يَجُدْ منها برسْلٍ فقَصْرُه

دُرَى المُرْهَفاتِ والقِلاَصِ النَّواجِر

قَرَى سيفَه منها مُشَاشاً وضَيْفَه

سنام المهاريس السباط المشافر

وتوبة أخيا من فتاة حيية

وأجرأ من لَيْث بخَفْانَ خادرِ

ونعم الفتى إن كان توبة فاجراً

وفَوْقَ الفَتَى إنْ كانَ لَيْسَ بفَاجِرِ

فتى يُنْهِلُ الحاجاتِ ثُمَّ يُعِلُّها

فيطلعها عنه ثنايا المصادرِ

كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ

قَلائصَ يَقْحَصْنَ الحَصَا بالكَرَاكرِ

ولم يبن أبراداً عتاقاً لفتية

كِرَامٍ ويَرْحَلْ قبل فَيْء الهَوَاجِرِ

ولم يتجل الصبح عنه وبطنه

لَطِيفٌ كطَيِّ السِّبِّ ليس بحَادرِ

فتًى كان للمَوْلى سنَاءً ورفعةً

وللطارق الساري قرى غير باسرِ

ولم يدع يوماً للحفاظ وللندا

وللحرب يرمى نارها بالشرائرِ

وللبازل الكَوْماءِ يرْغو حُوَارُها

وللخيل تعدو بالماة المساعرِ

كأنّكَ لم تَقْطَعْ فلاةً ولم تُنِخْ

قِلاصا لدى فأوٍ من الأرض غائرِ

وتُصْبِحْ بمَوْماةٍ كأنّ صَرِيفَها

صَرِيفُ خَطَاطِيفِ الصَّرَى في المَحَاورِ

طوت نفها عنا كلاب وى سدت

بنا أجهليها بين غاو وشاعرِ

وقد كان أن تقول سراتهم

لعا لأخينا عالياً غير عائرِ

ودوية قفر يحار بها القطا

تخطيتها بالناعجات الضوامرِ

فتَاللَّهِ تَبنِي بيتَها أُمُّ عاصمٍ

على مثله أُخْرَى الليالي الغوابرِ

فليس شِهَابُ الحربِ تَوْبةُ بعدَها

بغازٍ ولاغادٍ برَكْبِ مُسَافرِ

وقد كان طَلاّعَ النّجادِ وبَيِّنَ اللـ

فآنستُ خيلاً بالرُّقيِّ مُغيرةً

وقد كان قبل الحادثاتِ إذا انتحَى

وسائق أو مغبُوطةً لم يُغَادِرِ

وكنت إذا مولاك خاف ظلامة

دَعَاك ولم يَهْتِف سواك بناصرِ

فإنْ يَكُ عبدُالله آسَى ابنَ أُمِّه

وآب بأسلاب الكمي المغاورِ

وكان كذات البَوِّ تَضْرِب عنده

سِباعا وقد أَلقَيْنَه في الجَرَاجِرِ

فإنك قد فارقْتَه لك عاذرا

وأنى لحي عذر من في المقابرِ

فأقسمت أبكي بعد توبة هالكاً

واحفل من نالت صروف المقادرِ

على مثلِ هَمَّامٍ ولابن مُطَرِّفٍ

لتبك البواكي أو لبشر بن عامرِ

غلامان كانا استوردا كل سورة

من المَجْدِ ثم استوثقا في المَصَادِرِ

رَبِيعَيْ حَيا كانَا يَفِيضُ نَدَاهُما

على كل مغمور نداه وغامرِ

كأن سنا ناريهما كل شتوة

سنا البرق يبدو للعيون النواظرِ

أياعين بكي توبة ابن حمير

أياعين بكي توبة ابن حمير

بسح كفيض الجدول المتفجرِ

لتبك عليه من خفاجة نسوة

بمَاء شؤون العَبْرة المُتَحَدِّرِ

سَمِعْنَ بَهْيجَا أرهقَتْ فذكَرْنَه

ولا يَبْعَثُ الأحزانَ مِثْلُ التَّذَكُّرِ

كأن فتى الفتيان توبة لم يسر

بنَجْدٍ ولم يَطْلُعْ مع المُتَغوِّرِ

ولم يَرِدِ المَاء السِّدامَ إذا بَدَا

سنا الصبح في بادي الحواشي منورِ

ولم يَغْلِبِ الخَصْمَ الضِّجاجَ ويَمْلأال

جفان سديفاً يوم نكباء صرصرِ

ولم يَعْلُ بالجُرْدِ الجيادِ يَقُودُها

بسرة بين الأشمسات فايصرِ

وصَحْراءَ مَوْماةٍ يَحارُ بها القَطا

قطعت على هول الجنان بمنسر

يقودون قبا كالسراحين لاحها

سُرَاهُمْ وسَيْرُ الراكبِ المُتَهَجِّرِ

فلما بدت أرض العدو سقيتها

مجاج بقيات المزاد المقير

ولما أهابوا بالنهاب حويتها

بخاظِي البَضيع كَرُّه غيرُ أعْسَرِ

ممر ككر الأندري مثابر

إذا ما وَنَيْنَ مُهْلِبِ الشَّد مُحْضِرِ

فألوت باعناق طوار وراعها

صلاصل بيض سابغ وسنور

ألم تر أن العبد يقتل ربه

فيظهر جد العبد من غير مظهر

قَتَلْتُمْ فتى لا يُسْقِطُ الرَّوع رُمْحَه

إذا الخيلُ جالَتْ في قَنًا متكسِّرِ

فيا توب للهيجا وياتوب للندى

ويا توب للمستنبح المتنور

ألا رب مكروب أجبت ونائل

بذلت ومعروف لديك ومنكر

كم هاتف بك من باك وباكية

كم هاتف بك من باك وباكية

يا توبُ للضَّفِ إذْ تُدْعَى وللجّارِ

وتوب للخصم إن جاروا وإن عدلوا

وبدلوا الأمر تقضاً بعد إمرار

إنْ يُصدِرُوا الأمْرَ تُطلِعهُ مَوَاردُهِ

أو يُوردُوا الأمرَ تُحلله بإصدَار

أقسمت أرثي بعد توبة هالكاً

أقسمت أرثي بعد توبة هالكاً

وأحفل من دارت عليه الدوائرُ

لعَمْرُكَ مَابالمَوْتِ عارٌ عَلَى الفَتَى

إذا لم تصبه في الحياة المعايرُ

وَمَا أحَدٌ حَيٌّ وإن عاشَ سالِما

بأخلد ممن غيبته المقابرُ

ومَنْ كانَ مِّما يُحدِثُ الدَّهْرُ جَازعا

فلا بُدَّ يَوْمَاً أن يُرى وهو صابرُ

وليس لذي عيش عن الموت مقصر

وليس على الأيام والدهر غابرُ

ولا الحَيُّ مِمّا يُحدِثُ الدَّهْر مُعتَبٌ

وَلا المَيْتُ إنْ لَمْ يَصْبر الحيُّ ناشِرُ

وكل شباب أو جديد غلى بلى

وكل امرىء يوماً إلى الله صائرُ

وكل قريني إلفة لتفرق

شتاتاً وإن ضنا وطال التعاشرُ

ولكنَّما أخْشَى عَلَيْه قَبيلةٍ

أخا الحرب إن دارت عليك الدوائرُ

فَآلَيْتُ لا أنْفَكُّ أبْكِيكَ ما دَعَتْ

على فنن ورقاء أو طار طائرث

قَتِيلُ بَني عَوْفٍ فيا لَهْفَتا لَهُ

لَهَا بدُروبِ الرّوم بَادٍ وحَاضِرُ

إن كنت تبغي أبا بكر فإنهم

إن كنت تبغي أبا بكر فإنهم

بكل ساحة قوم منهم أثرُ

نعمى وبؤسى بآفاق البلاد فما

أعْداؤُهُمْ مِنْهُم، ولا قَدَرُوا

والعالمون إذا ما الأمر ضاقهم

أنّى يُحَاولُ فيه الوردُ والصَدَرُ

وَكختَرْتُ آلَ أبي بَكْرٍ لِحَاجَتِنا

وكان فيهم لمن يختارهم خيرُ

وَما اتهَمْتُ بَني جزءٍ بِظنّتِهِ

وما أساءوا وما ضاع الذي خطروا

لَعَمْرُكَ ما الهِجْرانُ أنْ تَشْحَطَ النَّوى

لَعَمْرُكَ ما الهِجْرانُ أنْ تَشْحَطَ النَّوى

ولكنَّما الهِجْرانُ ما غيّبَ القبرُ

لزاز حروب يكره القوم درأه

لزاز حروب يكره القوم درأه

ويمشي غلى الأقران بالسيف يخطرُ

مطل على أعدائه يحذرونه

كما يحذر الليث الهزيل الغضنفرُ

مُهَفْهَفُ الكَشْحِ والسَّربالُ مُنخرقٌ

مُهَفْهَفُ الكَشْحِ والسَّربالُ مُنخرقٌ

عنْه القميصُ لسير الليل مُحْتَقَرُ

لا يأمن الناس ممساه ومصبحه

في كل فج وإن لم يغز ينتظرُ

رَمَوْها بأثْوَابٍ خِفَافٍ فلا تَرَى

رَمَوْها بأثْوَابٍ خِفَافٍ فلا تَرَى

لها شبهاً إلا النعام المنفرا

نحن الأخايل ما يزال غلامنا

نحن الأخايل ما يزال غلامنا

حتى يدب على العصا مذكورا

لتبك العذارى من خفاجة كلها

لتبك العذارى من خفاجة كلها

شتاء وصيفاً دائبات ومربعَا

على ناشىء نال المكارم كلها

فما انفك حتى أحرز المجد أجمعَا

جَزَى اللّه خَيْراً وَالجزاءُ بكفِه

جَزَى اللّه خَيْراً وَالجزاءُ بكفِه

فتى من عقيل ساد غير مكلفِ

فَتًى كانَتِ الدُّنْيَا تَهُونُ بأسْرِها

عليه ولا ينفك جم التصرفِ

يَنَالُ عَلّياتِ الأُمورِ بهَوْنةٍ

إذا هِيَ أعيَت كُلَّ خرْق مُشَرَّفِ

هُوَ الذَّوبُ بلْ أريُ الخَلايا شَبيهُه

بدرياقةٍ من خَمْرِ بَيْسانَ قَرْقَفِ

فيا ثَوبُ مافي العَيْش خَيرٌ ولاندًى

يعد وقد أمسيت في ترب نفنفِ

ومانِلْتُ مِنْكَ النَّصفَ حتى ارتَمَتْ بِكَ

المَنَايا بسهمٍ صائبِ الوَقْع أعْجَفِ

فيالف ألف كنت حيا مسلماً

لألقاك مثل القسور المتطرفِ

كما كنت إذ كنت المنحى من الردى

غذا الخيل جالت بالقنا المتقصفِ

وكَمْ من لَهيفٍ مُحجَر قدأجبتَه

بأبيضَ قطّاع الضريبَةِ مُرْهفِ

فأنقذتَه والموْتُ يَحرقُ نابَهُ

عليه ولم يطعن ولم يتسيفِ

أنيخت لدى باب ابن مروان ناقتي

أنيخت لدى باب ابن مروان ناقتي

ثلاثاً لها عند النتاج صريفُ

يُطيفُ بهَا فِتْيَانَه كُلَّ لَيْلَةٍ

بنيرَيْنِ مِنْران الحِبالُ وريفُ

غلام تلقى سؤددا وهو ناشىء

فآتت به رحب الذراع أليفُ

بقيل كتَحْبير اليَمَاني ونَائِلٍ

إذا قلبت دون العطاء كفوفُ

ورحنا كأنا نمتطي اخدرية

حليٌّ بجَنْبى ثادق وجَفيفُ

أرن عليها قارباً وانتحت له

مبرة ارساغ اليدين زروفُ

تُهادي خجوجا خَدّدَ الجَرْيُ لَحْمَهُ

فلا جحشها بالصيف فهي خروفُ

دعاكَ فلا مِنْ أنْفَسِ القوْمِ أنتمُ

دعاكَ فلا مِنْ أنْفَسِ القَوْمِ أنتمُ

ولا نسب من قيس عيلان يعرفُ

أبَعْدَ عُثْمانَ تَرْجُو الخَيْرَ أمَّتُهُ

أبَعْدَ عُثْمانَ تَرْجُو الخَيْرَ أُمَّتُهُ

وكان آمن من يمشي على ساق

خَليفَةُ اللِه أعْطاهُم وخَوَّلَهُم

ماكانَ من ذهَب جَمَّ وَأورَاق

فلا تَكْذِبْ بوَعْدِ اللِه وارْضَ به

قد قدر الله ما كل امرىء لاق

تَخَلّى عَنْ أبي حَرْبٍ فُوَلّى

تَخَلّى عَنْ أبي حَرْبٍ فَوَلّى

بهيدة قابض قبل القتال

ونجى قابض ورد سبوح

يَمُرُّ كأنهُ مريخُ غال

نَفَخْتَ بهِ اليَمينَ فَظَلَّ يَهْوي

هويَّ الصَّقْرِ في يَوْمِ الظّلال

فجاء كأنما يهوي لنحب

طويل المتن مرتفع القذال

ألما أن رايت الخيل تردى

تباري بالخدود شبا العوالي

على زَبَدِ القَوَائِمِ أعوجيٍّ

حثيث الركض منكفت القوالي

حباك بهِ ولمْ يجدْ بكَ لمّا

راك محارفاً صمن الشمال

فإنّك لو ركضتَ ـ خلاكَ ذَمُ ـ

وفارقَكَ ابنُ عمّك غيرَ قال

ألمْ تعْلمْ جَزاك الله شرا

بأن الموت منهاة الرجال

فتضربَ ضَرْبةً يسْمُو إليها

حديث القوم في الرفق العجال

فلا وأبيك يا ابن ابي عقيل

يبلُّك بعدها عندي بلال

ولنعم الفتى ياتوب كنت إذا التقت

ولنعم الفتى ياتوب كنت إذا التقت

صدور العالي واستشال الأسافلُ

ونعم الفتى ياتوب كنت ولم تكن

لتسبق يوماً كنت فيه تحاولُ

ونعم التفى ياتوب كنت لخائف

أتاك لكي يحمي ونعم الجاملُ

ونعم الفتى ياتوب جاراً وصاحباً

ونعم الفتى ياتوب حين تفاضلُ

لعمري لأنت المرء ابكي لفقده

بجد ولو لامت عليه العواذلُ

لعمري لنت المرء أبكي لفقده

ويكثر تسهيدي له لا أوائلُ

لعمري لأنت المرء أبكي لفقده

ولو لام فيه ناقص الرأي جاهلُ

لعمري لأنت المرء أبكي لفقده

إذا كَثُرتْ بالمُلحمينَ التلاتلُ

أبى لك ذمَّ الناس ياتوبَ كلّما

ذُكرتَ أمورٌ مُحكماتٌ كواملُ

أبى لك ذمَّ الناس يا توبِ كلّما

ذكرت سماح حين تأوي الأراملُ

فلا يُبعدنكَ اللّه ياتوبَ إنما

لقيت حمام الموت والموت عاجلُ

ولايُبعدنكَ اللّه ياتوبَ إنها

كذاكَ المنايا عاجِلاتٌ وآجلُ

ولايُبعدنَك اللّه ياتوب والتقت

عليك الغوادي المدجنات الهواطلُ

أتاني مِنَ الأنْباءِ أنّ عَشِيرةً

أتاني مِنَ الأنْباءِ أنّ عَشِيرةً

بشوران يزجون المطي المنعلا

يروح ويغدو وفدهم بصحيفة

لِيَسْتَجْلِدُوا لِي، سَاءَ ذلك مَعْمَلاً

على غير جرم غير أن قلت: عنهم

يعيش أبوهم في ذراه مغفلاً

وأعمى أتاه باحجاز نثاهم

وكان بأطراف الجبال فأسهلاً

فجَاءَبِهِ أصْحابُهُ يَحْمِلُونَهُ

غلى خير حي آخرين وأولاً

إذا صَدَرَتْ ورّادهُم عن حِياضِهِم

تغادر نهباً للزكاة معقلاً

تنافر سواراً إلى المجد والعلى

وأقسم حقاً غن فعلت ليفعلاً

بمجد إذا المرء اللئيم أراده

هوى دونه في مثبل ثم عضلاً

وهل أنْت إنْ كانَ الهجَاءُ مُحَرَّما

وفي غيره فضل لمن كان فصلاً

لنا تامك دون السماء وأصله

مقيم طوال الدهر لن يتحلحلاً

وماكانَ مَجْدٌ في أُناسٍ عَلِمْتُهُ

من الناس غلا مجدنا كان أولاً

أنابغ لم تنبغ ولم تك أولا

أنابغ لم تنبغ ولم تك أولا

وكنت صنياً بين صدين مجهلاً

أنابغ إن تنبغ بلؤمك لا تجد

لِلُؤمك إلاوَسَسْطَ جَعْدَةَ مَجْعَلا

أعيرتني داء بأمك مثله

وأي جواد لا يقال له: هلا

وما كنت وقاذفت جل عشيرتي

لأذكرَ قَعْبي حَارزٍ قد تثمّلا

وذي حاجةٍ قلنا له لاتبح بها

وذي حاجةٍ قلنا له لاتبح بها

فليس إليها ما حييتَ سبيلُ

لنا صَاحِبٌ لا يَنْبغي أنْ نَخُونَهُ

وانت لأخرى فارغ وحليلُ

تخالك تهوى غيرها فأنها

لَهَا مِنْ تَظَنّيها عَلَيْكَ دَليلُ

بعيدُ الثَّرَى لا يَبْلُغُ القوْمُ قَعْرَهُ

بعيدُ الثَّرَى لا يَبْلُغُ القَوْمُ قَعْرَهُ

الد ملد يغلب الحق باطلهُ

غذا حل ركب في ذراه وظله

ليمنعهم مما تخاف نوازلهُ

حماهم بنصل السيف من كل فادح

يخافونه حتى تموت خصائلهُ

معاذ غلهي كان والله سيداً

جواداً على العلات جمأ نوافلهُ

أغر خفاجياً يرى البخل سبة

تَحَلَّبُ كَفَّاه النَّدى وأنامِلُه

عفيفاً بعيد الهم صلباً قناته

جميلاً محياه قليلاً غوائلهُ

وكان إذا ما الضيف أرغى بعيره

لدَيْه أتاهُ نَيلُه وفواضلُهْ

وقدعلمَ الجُوعُ الذي بات سَارياً

على الضّيفِ والجيران أنك قاتِلُهْ

وانك رحب الباع ياتوب بالقرى

إذا مالئيمُ القَوْمِ ضاقتْ مَنَازلُهْ

يبيت قرير العين من بات جاره

ويُضْحي بخَيْر ضيفُه ومنازلُهْ

أتَتْه المَنايا حينَ تمَّ تَمَامُه

وأقصَرع عنْهُ كلُّ قِرْنٍ يُطاولُه

وكانَ كليثِ الغَاب يَحْمِي عَرينَه

وتَرْضَى بهِ أشْبالُهُ وحَلائِلُهْ

غضوب حليم حين يطلب حلمه

وسِمٌّ زُعَافٌ لا تُصابُ مَقَاتِلُهْ

ستحملني ورحلي ذات وخد

ستحملني ورحلي ذات وخد

عَلَيْها بِنْتُ آباءٍ كِرامِ

إذا جعلت سواد الشأم جنباً

وغُلِّق دونَها باب اللِّئامِ

فليسَ بعَائدٍ أبدا إليهم

ذوُو الحَاجاتِ في غَلَس الظلامِ

أعاتِكَ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاة بنا

عَزاءَ النّفْسِ عنكُمُ واعْتِزامِي

إذاً لعَلِمْتِ واسْتَيْقَنْتِ أنّي

مُشَيَّعةٌ ، ولم تَرْعَيْ ذِمامي

أأجعلُ مثلَ توبةَ في نداه

أبا الذبان فوه الدهر دامي

معاذ الله عسفت برحلي

تُغذُّ السَّيرَ لِلبَلدِ الثّهامِي

أقلتِ:خَلِيفةٌ فَسِواه أحْجَى

بِامْرَتِهِ وأولى باللِّئامِ

لِثامِ الملك حينَ تُعَدُّ كعبٌ

ذوو الأخْطارِ والخُطَطِ الجسامِ

ياعينُ بَكّي بدَمْعٍ دائِمِ السَّجمِ

ياعينُ بَكّي بدَمْعٍ دائِمِ السَّجمِ

وابكي لتوبة عند الروع والبهمِ

على فتًى من بَني سَعْدٍ فُجعتُ بهِ

ماذا أجنَّ به في الحُفْرَةِ الرَّجْمِ

منكلّ صَافيةٍ صرْفٍ وقافيةٍ

مثل السِّنان وأمر غير مُقتَسمِ

ومصدر حين يعيي القوم مصدرهم

وحَفنة عند نحس الكوكبِ الشبمِ

حداك الحين أن عالبت ملكاً

حداك الحين أن عالبت ملكاً

أريبا ذا مُخاتلةٍ وحَزْمِ

ومصنوعاً له فِيماأتَاه

إلى الأملاك من وتر وغمِّ

فدونَكَها فَذُقْ كأسا قَتُولاً

على طعمين: ممقور وسمِّ

نْحْنُ مَنَعنَا بَيْنَ أسْفَلِ ناعِت

نْحْنُ مَنَعنَا بَيْنَ أسْفَلِ ناعِت

إلى وارداتٍ بالخَمِيس العَرَمْرمِ

بحَيٍّ إذا قيلَ اظعَنُوا قد أتَيْتُمُ

أقاموا على هول الجنان الرجمِ

تحمل أولاهم من الدار غدوة

وتُمْسي بها أخْراهم لَمْ تَصْرمِ

يشبهون ملوكاً في تجلتهم

يشبهون ملوكاً في تجلتهم

وطول انصية الأعناق واللمم

تُشَافي رَوَاياهُمْ هُبالَةُ بَعْدَما

تُشَافي رَوَاياهُمْ هُبالَةُ بَعْدَما

وردن وحول الماء بالجم يرتمي

لما تَخَايلت الحُمُول حَسِبْتَها

لما تَخَايلت الحُمُول حَسِبْتَها

دُوماً بأيلةَ ناعِماً مَكْمُومَا

يا أيها السَّدمُ المُلوي رأسَهُ

ليَقُودَ مِنْ أهْلِ الحِجَازِ بريمَا

أتريدُ عمرو بنَ الخَليع ودونَه

كعب غذا لوجدته مرؤومَا

أنَّ الخَليعَ وَرَهْطَهُ في عامِرٍ

كالقلب البس جؤجؤا وحزيمَا

لاتُسْرِعَنّ إلى رَبيعةَ إنَّهُمْ

جَمَعُوا سَوادا للعدوّ عَظِيمَا

شَعْبا تَفَرَّقَ من جِماعٍ واحدٍ

عدلت معداً تابعاً وصميمَا

لا تغزون الدهر آل مطرف

لاظالِماً أبَداً ولامظلومَا

فَاقصِد بذرْعكَ لو وَطِئتَ بلادَهم

لاقت بكارتك الحقاق قرومَا

وتَعاقَبَتْكَ كَتَائِبٌابن مطرف

فأرتك في وضح الصباح نجومَا

قوم رباط الخيل وسط بيوتهم

وأسنةٌ زُرْقٌ تُخَالُ نُجومَا

ومخرق عنه القميص تخاله

وسْط البُيوتِ من الحياءِ سَقِيمَا

حتّى إذا رَفَعَ اللواءَ رأيتَهُ

تَحْتَ اللواءِ على الخَميسِ زَعِيمَا

وإذا تشاء وجدت منهم مانعاً

فلجاً على سَخَط العدو مُقيمَا

أو ناشئاً حَدَثاً تحكم مثلَهُ

صلع الرجال توارث التحكيمَا

لن تستطيع بأن تحول عزهم

حتى تحول ذا الهضاب يسومَا

إن سالموكَ فدَغهم من هَذِه

وارقد كفى لك بالرقاد نعيمَا

لَعَمْرُكَ ما بالموتِ عَارٌ على الفتى

لَعَمْرُكَ ما بالموتِ عَارٌ على الفتى

إذا ما الفَتَى لاقَى الحِمامَ كَريما

قتل ابن عفان الإما

قتل ابن عفان الإما

مَ فضاعَ أمرُ المسلمينا

وتشتت سبل الرشا

دِ بصادِرين وواردينا

فانهض معاوي نهضة

تُشفي بها الداء الدفينا

أنت الذي من بعده

ندعو أمير المؤمنينا

أحجاج إن الله أعطاك غاية

أحجاج إن الله أعطاك غاية

يُقصّر عَنْها مَن أرَادَ مَداهَا

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ال

منايا بكف الله حيث تراهَا

إذا هَبَطَ الحَجَّاجُ أرْضاً مَريضَةً

تَتبعَ أقصَى دائها فَشفَاهَا

شَفَاها من الدّاءِ العُضالِ الّذي بها

غلام إذا هز القناة سقاهَا

سَقَاها دمَاءَ المارقينَ وعَلّها

غذا جمحت يوماً وخيف أذاهَا

إذا سمع الحجاج رز كتيبة

أعد لها قبل النزول قراهَا

أعد لها مصقولة فارسية

بأيدي رجالٍ يحلبُون صراهَا

فما ولد الأبكار والعون مثله

بنجدٍ ولا أرضٍ يجف تراهَا

أحجاج لا تعط العصاة مناهم

ولا اللّه يُعطي لِلعُصَاةِ مُناهَا

ولا كل حلاف تقلد بيعة

فأعظمَ عهدَ اللّه ثُمّ شَراهَا

تحوط العشيرة أفعاله

تحوط العشيرة أفعاله

وتحمل عنه الذي آدها

جَزَى اللّه شَرّا قابضاً بصنيعه

جَزَى اللّه شَرّا قابضاً بصنيعه

وكل امرىء يجزى بما كان ساعيا

دعا قابضاً والمرهفات يردنه

فقُبحْتَ مدعّوا، ولبّيك داعيَا

فَلَيْتَ عُبيدَ اللّه كانَ مكانَه

صَريعا؛ولم أسمَعْ لتوبةَ ناعِيَا